أثر العدول اللفظي وإعجازه في القرآن الكريم.

Effect of verbal shift and its miraculous aspect in the Holy Quran

العياشي بختي[1]

المركز الجامعي بريكة ـ باتنة ـ

الإيميل: bakhtimsila@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/04/24 تاريخ القبول: 2020/04/30 تاريخ النشر: 2020/07/05

الملخص:

يُعدّ الخطاب القرآني أسلوبا مميزا عن أسلوب البشر، لأنّه معجز بمفرداته وتراكيبه، ونظامه الصوتي الذي يستهوي النفوس، وهذا بسبب تنوع بنية أسلوبه الخطابي، فلا حدود جغرافية ولا زمانية ولا عرقية تتحكم فيه، فمثلا معاني الكلمة فيه لا تتوقف عند شكلها الخارجي الصّرفي والنّحوي، بل تقتضي معانٍ أخرى تعمل على بيان سمات دلالية وإعجازية يضمرها اللّفظ، وقد حاولنا في مقالنا هذا دراسة ظاهرة العدول اللفظي انطلاقا من الأبعاد الدلالية التي يضفيها هذا الأخير على اللغة ، كما أفضت هذه الدراسة إلى إبراز أثر الإعجاز القرآني على نفسية المتلقي.

الكلمات المفتاحية: العدول ، البلاغة، الإعجاز ، اللفظ والمعنى، المتلقي.

Abstract:

Discourse of Quran is of a different style from that of human beings, it is distinguished by its vocabulary, its structures and its miraculous sound system that affect souls because of structures diversity of its discursive style. It is not dominated by geographic, temporal or ethnic boundaries. The meaning of the word in itself is not only determined by its grammatical form, but rather it appeals to other meanings where semantic or even miraculous characteristics are manifested. In this article, we have attempted to study the phenomenon of verbal shift according to the semantic dimensions that it gives to language, this study also aims to highlight the effect of miraculous language of Quran on the addressee psychology.

Keywords: shift, rhetoric, miracle, word and meaning, addressee

---

1- **المؤلف المرسل:** العياشي بختي ، **الإيميل:** bakhtimsila@gmail.com

1. توطئة:

ليست اللغة العربية لغة حياة يتبادل فيها الناس المصالح والمنافع فحسب، بل هي لغة قدسية استهلت قيمتها وبلاغتها وفصاحتها من القرآن الكريم، مما أعطى لها مكانة مميزة عن جميع لغات العالم، وهذا ما يتجلى لنا في قوة ألفاظها وعمق معانيها ، فالكلمات مثلا" هي الوسيلة الوحيدة لنقل المعاني والحقائق من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر، ومن إنسان إلى إنسـان، فإذا وقع الشك في مدلول هذه الكلمات ومصـداقها ، أو صار التلاعب بها هينا، اضطربت دعائم الدين وتزلزلت أركانه، وهذا يعم التاريخ والشعر والأدب"[1]، من هنا وجب على عـامة الناس الحفاظ على دلالات ومـعاني الألفـاظ من أن تغتالها الأفـكار الضالة فتشوه عن مقصودها الأصلي الذي خُـلقت من أجله ، فتنزاح عن سياقها اللغوي والعاطفي وغيره فتعطي مدلولات جديدة، وهذا ما يعرف بمصطلح العدول أو الانحراف وغيره من المصطلحات، ومن هذا المقام نحاول أن نجيب عن بعض التساؤلات نراها ضرورية في البحث نذكر منها : ما معنى العدول ، وماذا أضاف في الخطاب القرآني وإعجازه ، وما أثره على المتلقي؟

يأتي معنى العدول في لسان العرب "عدل الطريق : مال ... وفي الحديث:لا تُعدل سارحتكم ؛ أي لا تصرف ماشيتكم وتُمال في المرعى"[2]، أما في معجم مقاييس اللغة "عدل: العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنهما متقابلان كالمتضادين: أحدهما يدل على استواء والآخر يدل على الاعوجاج[3]، يستخلص مما سبق أنّ مصطلح العدول يدل على الخروج أو الحياد أو الانحراف عن المسار الأصلي .

أما في المعنى الاصطلاحي فيعني الانحراف عن المألوف، وذلك بخرق قواعد التعبير المتعارف عليها لغايات جمالية أو إقناعية بغية التأثير في المتلقي ، وهذا ما ذهب إليه ابن الأثير في قوله:" أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ، الذي اطلع على أسرارها ، وفتش عن دفائنها ، ولا نجد ذلك في كل الكلام، فإنه من أشكال ضروب علم البيان وأدقها فهما، وأغمضها طريقا"(4)، فالعدول عن المألوف يظهر في البُنى والتراكيب والأصوات أو في الدلالة كما يهتم بالتحليل الفني والجمالي والتأثير في المتلقي .

2 . موقف التّحدي من بلاغة القرآن وإعجازه:

اتّسع الاهتمام ببلاغة القول وذلك بعد ظهور القرآن الكريم، فكان حجّة بلاغية ترك أثرا في نفوس العرب قاطبة آنذاك، وذلك بسمُوّ بيانه ورفعة معانيه، فقد حوى طاقة بيانية أعجز كلّ لسان ناطق، وعطفت قلوبهم لذكره وعملوا على بيان كل آية وأعطوها كثيرا من الاهتمام والتّدبر والإعجاب،

مما أجمعوا "أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن. فإنّ ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرّقة وسلس الموقع"[5]، فالتّحدي واضح في نظمه وتراكيب أساليبه بأجود ما قالته العرب، فأعجزهم جميعا على أن يأتوا بسورة من مثله، واجتمع أمراء البلاغة وجهابذة العرب، وعملوا على تحديه ومعارضته لكنّهم وقفوا عاجزين أمام سلطان آياته، وما بقي أمامهم سوى الاستسلام والانقياد لأوامره؛ لأنّ القرآن أوصافه جليلة وعظيمة، إنّه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه نور وفرقان، ورحمة، وحجة، وبرهان، وبصيرة، وشفاء للناس وبشرى ووعيد، فهو"دعوة الله إلى الإنسانية كافة وقف أمام نزعات مختلفة حاولوا بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله، فألجم خصومتهم بالحسّ والعيان، وعارضهم بأسلوب مقنع، واستدلال ملزم، وجدل محكم"[6]، ولم يترك لهم أي منفذ يجادلون فيه.

أما عدول الأولون عن بيان الإعجاز فيه فيأتي القصد من ورائه بأنّ القرآن جاء من أجل "تعليم الحلال والحرام، وتعريف شرائع الإسلام وقواعد الإيمان، ولم يُقصد منه تعليم الفصاحة؛ وإنما جاءت لتكون معجزة، وما قُصد به الإعجاز لا سبيل إلى معرفة طريقه، فلم يكن الخوض فيه مسُوغا؛ إذ البلاغة ليست مقصودة فيه أصلا؛ لأنه موجود في الصحف الأولى: لا مع هذه البلاغة المعينة؛ وإنما كان بليغا بحسب كمال المتكلم ؛فلهذا لم يتكلم السّلف في ذلك"[7]، وتتجلى لنا مواطن التحدّي في ثلاث مواضع: فالأولى: التحدّي بأن يجتمع إنسهم وجنُّهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم كاملا قال الله تعالى:﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾[8].والثانية: وتحداهم بعشر سور تضاهيه في قوة البيان، قوله تعالى:﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[9] .الثالثة: بل تحدَّاهم وأثبت عجزهم، بأن يأتوا بسورة واحدة في نظمه وبيان أسلوبه، قال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[10]. لقد أقام الله عليهم الحجة والبيان بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا سورة بمثله ويشمل هذا التّحدي "قصار السور كما يشمل طوالها فهو تحدّاهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر ولإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها، ومن المعلوم أنّ العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن"[11]، لأنه دحض دعواهم رغم عدم وجود ما يمنعهم من معارضته سواء من الجانب اللفظي الذي نزل بلسانهم، وهم أهل البيان،أو الجانب المعنوي أنهم ذو رجاحة عقل وصفاء في القريحة ، وكذلك من الجانب الزماني، أنه نزل منجما حتى لا يحتجوا بأن زمنهم لا يتسع للمعارضة"[12]، وقد ذكر لنا الجاحظ أنّ وجه الإعجاز والتحدي في القرآن يكمن في نّظمه وحسن تّأليف، بقوله:"في كتابنا

المنزّل الذي يدل على أنه صدقﷺ نظمه البديع، الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به"[13]، لقد أجهد طاقة البشر في تحديه، وبلغ أعلى درجات التّأثير في النّفوس والعقول، ما يجعل ذهن البشر يستسلم لمنافسته.

3. دلالة المفردة القرآنية في السياق القرآني:

إنّ الكلمة لا تتوقف عند شكلها الخارجي الصرفي والنّحوي، بل تقتضي معنى ثانٍ تعمل على بيان سمّات دلالية من خلال علاقتها بالوضع المقامي، الذي يحرّر المعنى المعجمي وينتج معاني جديدة وفق ما يقتضيه السّياق، لأنّ معنى الكلام لا يتأتى بعيدا عنه فمعرفة حال المخاطب وشخصيته ومقام المتلقي ضرورة من ضروريات دراسة المعنى والكشف عن خباياه، لذا يستوجب على دارسي معاني القرآن وتفسيره معرفة سبب نزول الآيات القرآنية الذي له أثر في بيان دلالة الألفاظ وسرّ إعجازها وهذا ما أشار إليه أزفالد ديكرو(Oswald Ducrot) بقوله: "...ما نسميه وقع معنى الكلمة ليس بالضرورة معناها الذي تكتسبه داخل السّياق من تغيير، ذلك أنه من الخور أن نحدد داخل ملفوظ ما معنى الكلمات فيه واحدة"[14]؛ لأنّ السياق يورد حقائق ساطعة لهذه المفردة ،فيكشف عن المعنى الخفي لها وما تبثه في قارئها ، وتتعدد وظائف الكلمة في الخطاب، تبعا للسّياق الذي وجدت فيه، يقول فندريس (Vendrys)"الذي يعيّن قيمة الكلمة في كل الحالات إنّما السّياق، هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها، والسّياق أيضا هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية"[15].

من هذا التّصور نُعرّج على تعريف المفردة بأنها "الوحدة المعجمية ـ الصرفية ـ الإعرابية معا القابلة لأن تكتسب بالإضافة إلى معناها المعجمي سّمات دلالية إضافية من خلال علاقتها بالمقال الذي ترد فيه وبالمقام الذي تستعمل فيه، وهي قادرة في الوقت نفسه على التأثير في ذالك المقال والمقام بفضل ما لها من قيم دلالية مختلفة بعضها مستمد من اللغة نفسها وبعضها متأت من الاستعمال والتداول"[16]، فمعرفة ظروف السياق يلزمنا التحكم في أدق تفاصيل العملية الخطابية.

لقد تحدث الجرجاني عن أثر العدول في اللفظة وما يتركه من أثر في التركيب النظمي، وأنه جزء مهم من الإعجاز الإلهي للقرآن الكريم فيقول: " وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: " وقيل يا أرض ابلعي ماءك....بعدا للظالمين" فتتجلى لك منها الإعجاز، بهرك الذي ترى وتسمع ...وإن شككت ، فتأمّل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل "ابلعي" واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك اعتبر سائر ما

يليها"[17]، فالمزيّة من اختيار هذه اللفظة "ابلعي" من بين الكثير من مرادفاتها ، توحي لنا مباشرة تآلفها وانسجامها مع التركيب السياقي الذي وضعت فيه.

إنّ المنزلة التي تحظى بها المفردة في سياقها لا يمكن أن تحلّ مكانها مفردة أخرى، لأنها "وضعت وضعا فنيّا مقصودا في مكانها المناسب، وأنّ الحذف في المفردة مقصود، وإنّ الإبدال مقصود، كما أنّ الأصل مقصود، وكل تغيّر في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه...فالتعبير القرآني تعبير فنّي مقصود، كل كلمة بل كل حرف وإنّما وضع لقصد"[18]. وهناك نوع من الألفاظ تحمل من الدلالات والمعاني القويّة التي تضفي على أذن السامع، ويتحسس إليها البصر ويفتتح لها القلب حين توجه انتباهه إلى صورة حسيّة، وأنّ الكلمات المنتقاة في أي خطاب تشكل تفاعلا كبيرا في حركتها الدلالية وتحمل معها أسرار إعجازية ينتبه إليها إلا من أعطاه الحكمة وقوة النّظر والتّأمل .

4. العدول على مستوى المفردة وأثرها الاعجازي :

لا يأتي اختيار لفظة عن أخرى في النظام التعبيري اعتباطيا، بل تتم العملية وفق إطارها الوظيفي المخصص لها والذي يخدم الخطاب، وقد "استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض"[19]، لذا نفى العلماء أن تكون حروفا زائدة في القرآن ؛لأنّ "اعتبار الزيادة فيه هو إقرارها بمعناها ، إنما هو نقص يجلّ القرآن عنه، وليس يقول بذلك إلا رجل يتعسف الكلام ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره... فما في القرآن حرف واحد إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة، من جهة نظمه، أو دلالته، أو وجه اختياره، بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق أو حرف نافر أو جهة غير محكمة أو شيء مما تنفذ في نقده الصنعة الإنسانية من أي أبواب الكلام إن وسعها منه باب"[20]، وعليه فلا يمكن أن نكتشف الأثر البلاغي والإعجازي للمفردة القرآنية إلا بالرجوع إلى سياق الموقف الذي يعطي المعنى الدلالي والتداولي لمعنى المفردة .

لقد وضع الخفاجي شروطا محددة في انتقاء حروف اللفظة من غيرها حتى تكون مقبولة لدى المتلقي معللا ذلك بقوله:" إن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة"[21]. وهذا ما ينطبق على دلالة اللفظة من غيرها بوجود موقف السياق.

ومن الأمثلة التي تُظهر السّر الإعجازي البياني في آي القرآن الكريم لفظتي " اسطاعوا ، واستطاعوا" في سورة الكهف، فالفرق ظاهر في الشكل الخارجي بين بنية اللفظين هو الحرف التاء، يقول الله تعالى:﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾[22] ، فالجزء الأول من الآية " **فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ**" فقد حذفت التاء في هذه اللفظة دليل على سهولة التجربة بمجرد رؤيتهم لعلوه تصوروا في نظرهم أن الصعود على ظهر السّد أهون من نقبه، لذا قُدّم لفظ "اسطاعوا" على

"استطاعوا" التي تدل على صعوبة العمل، حيث حاولوا نقب جدار السّد، لكن في كل العملين لم يستطع "يأجوج ومأجوج" "أن يظهروه" ويعلو ظهره لارتفاعه وملاسته "وما استطاعوا له نقبا" خرقا لصلابته وسمكه"[23]، فهاتين اللفظتين تحمل من الإعجاز اللفظي في بيان بلاغة القرآن وحجته على الناس.

إنّ المتكلم يسعى أحيانا عُنوة إلى إسقاط بعض حروف الهجاء ليس كصورة أريد بها الجمال فحسب، أو أنها تستدعي ضرورة لغوية أو شعرية كما يتغنّى بها بعض اللّغويين؛ بل هي طريق إعجازي بلاغي إقناعي يراد به السّيطرة على نفسية المتلقي، فيقيّد انتباهه ويُوقد فيه سجيّة التّأمل، يقول السيوطي ـ رحمه الله ـ : "هو أن يحذف المتكلم من كلامه حروفًا من حروف الهجاء بلا تكلّف ولا تعسّف، بأنّ يحذف كل حرف موصول ويأتي بالجميع مقطوعة أو عكسه أو يحذِف كل حرف منقوط ويأتي بالجميع مهملة أو عكسية، أو يأتي بكلامه متخالفًا حرف منه موصول وحرف مقطوع أو حرف معجم وحرف مهمل أو كلمة كل حروفها معجمة، وكلمة كل حروفها مهملة وهكذا، أو يلتزم حذف حرف واحد كالألف"[24].

إنّ موقع الحذف في الخطاب القرآني يشمل أصغر جزء في التركيب اللّغوي، وهو الحرف، وأن وقوعه في السورة جاء مناسبا لمقام الآية ليدرك المخاطَب مدى أهمية الحذف، ومن الأمثلة التي تظهر إعجاز الحرف وقوة بيانه ، فقوله تعالى:﴿ **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ** ﴾[25]. فسقوط حرف النّون في قوله تعالى:" **فَلَا تَكُ** " ليس بسبب كثرة الجمل وثقلها فجاز حذفها، بل يرى الزركشي رأيا آخر أنّ حذف النّون في لام الفعل لم يحذف تخفيفا لثقل الفعل، أو اعتباطيا توافق عليه أهل اللّغة، لكنّ حذفه جاء " تنبيهًا على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأنّ منه ينشأ ويزيد، إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله"[26]، فالله تعالى استصغر أعمال هؤلاء المشركين وما يعبدونه من الأصنام والأوثان، ليقنعهم أنّها لا تستحق العبادة، وأنّ عبادتها تُوجب عليهم العذاب الأليم يوم القيامة.

ومن اللمسات اللطيفة التي يتميز بها القرآن الكريم عدول استعماله بعض الحروف بحسب ما يقتضيه السياق، وهذا ما أشار إليها الراغب الأصفهاني في تحليله وتفسيره للفظة "يُطفئوا" التي تناولها القرآن في موضعين متشابهين، لكن بمعنيين مختلفين، فالمعنى الأول لقوله تعالى:﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[27] ، وقوله أيضا:﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[28]، والفرق بين الموضعين أن في قوله : :﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا**﴾ يقصدون إطفاء نور الله وفي قوله:﴿ **لِيُطْفِئُوا** ﴾ يقصدون أمرا يتوصلون به إلى إطفاء نور الله"[29]، فالتباين بين الدلالتين مختلف ، لأنه استعمل في الآية الأولى أداة توكيد"أن" وفي

الآية الثانية "اللام" ، وهذه اللام" لا تكون إلا بعد (أردت) و(أمرت) ، وذلك لأنهما يطلبان المستقبل، ولا يصلحان في الماضي، ولهذا جعل معهما بمعنى (أن) وبذلك صرح صاحب الكشاف في تفسيره سورة الصف فقال "يريدون ليطفئوا نور الله أصله يريدون أن يطفئوا كما جاء في سورة براءة"[30]، وهذا نفسه ما ذهب إليه الرافعي أن معنى الآية "ليطفئوا"، غير اللام الزائدة فيها إعرابيا لمّحت إلى أن الإطفاء هنا ليس مباشرا بل يتم بوسيلة يُتوصل بها إلى ذلك قد تكون اتهامه بالسحر والشعر والكهانة، لأن العرب لما سمعوا القرآن من محمد ﷺ اتهموه بالكذب محاولين إطفاء نور الله ، فلما استعصى عليهم ذلك واستفزهم القرآن بأن يأتوا بسورة من مثله"[31].

وقد تحمل اللفظة الواحدة دلالات بيانية إعجازية ، يستحيل أن تُوفي ألفاظ أخرى المعنى الدقيق لسياق هذه الآية ، مثل لفظة "**ضيزى**" التي أخبر عنها الله سبحانه وتعالى في سورة النجم والتي تعني القسمة الجائرة ، وهي كلمة غريبة لا يمكن أن تعطي معنى آخر إلا في هذا الموقع، "ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ؛ ولو أردْت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ...إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات"[32]، وقد ردّ عليهم الله سبحانه وتعالى ﴿ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى** ﴾[33]، فحروفها تحمل من الخشونة والقوة على القلب، وهي كلمة غريبة وقليلة التداول عن بعض قبائل العرب ، لكن تداولها بعض الشعراء أمثال امرئ القيس قائلا:

ضازت بنو أسد بحكمهم :: إذ يعدلون الرأس بالذنب.

إنّ غرابة اللفظ جاء مناسبا وملائما "لغرابة هذه القسمة التي أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنّها تصوّر في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى"[34]، فلا يمكن أن نجد أي كلمة نفس المعنى ، وهذا ما يظهر لنا بلاغة القرآن وإعجازه.

ومن الإعجاز البياني للقرآني ورود بعض صيغ الألفاظ جمعا يقول الراغب "أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعا ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها: كلفظة (اللُّب) فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى:﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[35]...ولم تجيء به مفردة، بل جاء في مكانه (القلب)"[36]، ويكمن الأثر الإعجازي لهذه اللفظة أنها لو وظفت مفردة لاختل معنى الآية فلا يستقيم القول مع "لأولي اللب" ، لذا ورودها بصيغة الجمع فهي نفس المصاحبة الواقعة في معناهما، بحيث دل قوله تعالى:﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ على أصحاب العقول"[37]، فدلالة لفظ "أولي" دالة على الجمع لا تصاحب دلالتها إلا اللفظ الوارد معها "الألباب" لأن معنى لفظ اللب هو "العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، وقيل : ما زكى من العقل"[38]، وقد عدل عن استعمال المفرد للعذوبة الحاصلة في صيغة الجمع الألباب، وكأن "الجمع في

لفظة الألباب تفخيم لدلالتها وإعلاء لقدر أصحابها بما اكتسبوه من علم نافع يؤدي إلى الحياة الأبدية"[39].

وينطبق هذا السر الإعجازي على مفردة "الأرض" التي لا تأتي إلا مفردة ونجدها مقترنة مع السماء، يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾(40)، وقوله أيضا:﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾[41].

تتجلّى قدرته سبحانه وتعالى في عظمة سلطانه، وإبداع ملكوته، في خلقه للسموات والأرض، وورود الطّباق بين اسمين (السّموات والأرض) لبيان قدرة هذا الرّب، جلّ شأنه، وحجّة للخلق، يقول ابن القيم إنّ تقديم السّموات والأرض تدلّ على" وحدانيته، وربوبيته، ومعلوم أن الآيات في السّموات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها وقمرها، وبروجها وعلوّها، واستغنائها عن عمد تقلها، أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها، التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه أن يرجع النّاظر البصر فيها كرّة بعد كرّة، ويتأمل استواءها، واتساقها، وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء آية"(42)، ويتحكم في تقديم الأرض والسماء سياق الخطاب.

أما ورود لفظة الأرض التي تعني "الجِرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون، لا تجيء مجموعة في القرآن "[43]، ولهذا تختلف دلالاتها عن معنى لو قال " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضين" فينتج عن هذا اختلال في المعنى والنظم في الآية ، ويمكن أن نقول أن المكانة التي تحظى بها الأرض في هذا السياق باعتبار الأرض لا يمكنها أن تستغنى عن بركات السماء وخيراتها، التي تُعد مصدر رزق للبشرية وكل ماهو مخلوق على الأرض، لذا تعددت أسماؤها فسمي "المطر سماء لخروجه منها، قال بعضهم: إنما سمي سماء ما لم يقع بالأرض اعتبارا بما تقدم وسمي النبات سماء إما لكونه من المطر الذي هو سماء وإما لارتفاعه عن الأرض"[44] ، والغرض البياني والإعجازي من هذا التّقديم هو إقرار واعتراف وتنبيه المتلقي على انفراد الله بالوحدانية، وهذه السّموات والأرض، وما فيهما من ظواهر الوجود وأسباب المعيشة هي بديع صنائع الخالق تُلزم إثارة النّاظر للتّدبر والتّأمل فيما خلق.

ومن أمثلته أيضا استعمال القرآن الكريم الفعل "جاء" والفعل "أتى"، وهذا باختلاف السياق، فقوله تعالى:﴿ **فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**﴾[45] ، وقوله أيضا﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى**﴾[46]، فلا يمكن أن نبدل لفظة بغيرها لاختلاف دلالة المعنى ، ويرى فاضل السامرائي أن دلالة الفعل جاء أثقل من أتى "بدليل أنه لم يرد في القرآن فعل مضارع لـ (جاء) ولا أمر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول، ولم يرد إلا الماضي وحده بخلاف (أتى) الذي وردت كل تصريفاته، فقد ورد منه الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول. فناسب بين ثقل اللفظ وثقل الموقف في جاء، وخفّة اللفظ وخفة الموقف

في أتى"[47]، وهذا الانتقاء للألفاظ عن غيرها في الخطاب القرآني يظهر لنا أن مفردات القرآن الكريم تتعدد مدلولاتها، بحسب سياق الموقف، ولا يكتشف خباياها إلا من عالم متشبع بكل العلوم.

5. عدول المفردة القرآنية في التركيب الجملي :

تُعدُّ البلاغة ظاهرة منفردة في التّوجيه الكلامي، والتقديم والتأخير لون من فنونها، فهو رأس البيان وحلّته، وقد عبّر عنه أهل البصر الثّاقب الذين أوتوا حظًا وافرًا من بلاغة الكلم، أنه لون بلاغي و"سرّ من أسرار التّعبير، يكسب الكلام جمالا وتأثيرا، لأنّه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده، فيكون الأسلوب صورة صادقة لإحساس المتكلم، وصدق مشاعره"[48]؛ لأنّه يعبّر فيها عن مكنوناته العاطفية والنّفسية بصورة جليّة.

أما جون كوهن" jean cohen "فيعتبره انزياحا، لأنّه يقوم باختراق النّظام الترتيبي للّغة، لكنّ هذا الانزياح يعمده الشّاعر فيخرق هذا النّظام بالتشويش المتعمّد حتى يستطيع تصوير مشهد مؤثر به يمارس سلطته على نفس المتلقي، من خلال عنصر المفاجأة والتّشويق والغرابة فيلجأ إلى انتهاك نظام الرتبة في اللّغة[49].

إنّ التقديم والتأخر هو العدول أو انزياح عن القاعدة الأصلية للغة في تركيب الكلام ،كما يقول كوهن على أساس "الانزياح عن القاعدة التي تمس ترتيب الكلمات"[50]ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى**﴾[51] ، وقوله تعالى في موضع آخر في سورة يس ﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى** ﴾[52]، والملاحظ أن كل من الآيتين رقمها 20 في موضعها من السورة، فالتقديم والتأخير في لفظة رجل توحي بدلالات بيانية إعجازية تظهر مدى بلاغة القرآن الكريم، فالآية الأولى تتبعها قوله تعالى :﴿ **قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ ، وجاء التقديم الرجل لأسباب وهي :

أ ـ من الناحية النحوية فالنظم التعبيري للآية سليم في النظم العربي الفصيح فهناك الفعل والفاعل والمتبعات.

ب ـ فالرجل في سورة القصص مؤمن من آل فرعون وهذه إشارة واضحة أن هناك من قوم فرعون من يتصف بصفة الرجولة والشجاعة والصلاح ، بدليل أنه أفشى سرّ ومخطط فرعون لقتل النبي موسى عليه السلام ، لأنّ إفشاء هذا الخبر تتحقق فيه عقوبة القتل وهذه جرأة منه، ما جعل الاهتمام به وتأخيره عن "أقصى المدينة".

ج ـ تأخر معنى " أقصى المدينة" ؛لأن الخبر الذي جاء به الرجل مكانه معلوم لأنه "ناحية قصور فرعون وقومه فإن عادة الملوك السكنى في أطراف المدن توقيا من الثورات والغارات لتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف. وقد قيل :الأطراف منازل الأشراف"[53].

أما تقديم " من أقصى المدينة" في سورة يس وتأخير لفظ الرجل في هذا المقام ؛ لأن مجيئه لم يكن للنصح والتحذير، بل جاء لغرض آخر هو تدعيم المرسلين الذي انتشر خبرهم حتى أطراف المدينة ووصل إلى صوامع المتعبدين ، فالسياق يبين أن المكان أهم عناية واهتمام بالرجل، وهذا ما قاله الله تعالى:﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** ﴾.

ومن أمثلة العدول أيضا نجده في تقديم النّذارة عن البشارة التي تحمل من السّر الإعجازي والبياني يبقى فيها الإنسان منبهرا لقوة معانيه، نجد ذلك في قوله تعالى :﴿ **لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** ﴾[54].

جاء تقديم النّذارة عن البشارة في هذه الآية لغرض بياني إعجازي ؛ لأنّ الأولى تحمل معها الوعيد والتهديد، فهي تعبّر عن سخط الله من المنكرين لوحدانيته، كما توحي بالرّهبة والتّخويف، أما الثانية فتحمل دلائل التّرغيب والسّرور والرضا والثّواب الذي سيحظى به المؤمنون من نعيم الجنة، فيبعث فيهم الطمأنينة والأمل في حصول هذا النّعيم وتدفعهم إلى التّمسك بحبل الله المتين، ويأتي اجتماع كلّ من التّرهيب والتّرغيب في سياق واحد لغرض بلاغي وسرّ إعجازي، وهو حمل المتلقي على أنّ "التّرهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرّهبة على النّفس فتيأس من رحمة الله، واستخدام التّرغيب وحده قد يؤدي إلى استيلاء الأمل في رحمة الله على النّفس مما قد يوكلها إلى الدّعة والتّهاون والغفلة، فتتمنى على الله ما ليس لها"[55]، وهذا المزيج بين الرّحمة والرّهبة يدفع بالإنسان إلى التّفكير الجدّي في الأمور التي من حوله.

6. خاتمة:

تبين لنا من خلال هذا المقال أنّ مفردات القرآن الكريم مبنية على نظام خاص، ويتجلى ذلك في قوّة تماسكها وانسجامها وترابطها فيما بينها، فهو وحي إلهي مُشبعا بأرقى صور البيان والإعجاز ، ويظهر لنا هذا من خلال كشفه عن قضايا وأسرار ودلالات، ويبقى العقل البشري حائرا لقوّة حجّته، ويمكن استخلاص بعض النتائج من هذه الدراسة في النقاط الآتية:

- أنّ المفردة القرآنية تحمل من الدلالات والمعاني، سواء كانت ظاهرة أم مضمرة ، فلا يمكن أن تعبر لفظة على نفس مدلول لفظة أخرى ، وهنا يكمن الإعجاز القرآني .
- السّياق له دور كبير في معرفة دلالة بنية المفردة القرآنية والتركيب الجملي؛ لأنّه يكشف عن دلالات وأبعاد الخطاب، كما يعمل على تحريك وجدان المتلقي، وإعمال عقله من أجل الحصول على الفهم الصحيح للخطاب .

- إنّ تقنية التقديم والتأخير في النظام التركيبي للخطاب القرآني ، ينشأ عنه أسرار إعجازية وهذا من خلال تنوع الدلالات والمعاني التي تصدر من العناصر التي طالتها هذه التقنية.
- بلاغة العدول سواء في الحرف أم في اللفظة في الخطاب القرآني ، يعمل على تنشيط مخيلة المتلقي، وهذا من أجل الوقوف على الأسرار الإعجازية والدلالات الكامنة التي طالها الحذف.

7.الهوامش والإحالات:

([1]) عبد الله بن صالح بن سليمان الوشمي: جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي، مكتبة الرشد، الرياض،ط1،2005، ص437.

([2]) ـ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ابن منظور :لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، المجلد الحادي عشر، ص434 .

([3]) ـ أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج4، ص817..

([4]) ـ ابن الأثير ضياء الدين أبو الفتح: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2،ص193 ـ 194.

([5]) ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :البيان والتبيين، تحقيق،ع السلام محمد هارون ، القاهرة ،1948،ج1، ص 118.

([6]) ـ مناع القطان: مباحث في القرآن ، مكتبة وهبة، القاهرة،(د ـ ط)،(د ـ ت)،ص293.

([7]) ـ الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص312.

([8]) ـ سورة الإسراء: الآية88.

([9]) ـ سورة هود : الآية 13 .

([10]) ـ سورة يونس: الآية 38.

([11]) ـ فاضل صالح السّامِرائي: بلاغة الكلمة التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الأردن،ط 4، 2006، ص09.

([12]) ـ ينظر:عبد الوهاب خلاّف،علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر،مصر،ط8 ،(د ـ ت)، ص 26.

([13]) ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر،ط2، 1965، ج4، ص09.
([14]) ـ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية،دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م،ص71.
([15]) ج فندريس: اللغة ،ترجمة عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص،منشورات الانجلو المصرية ، القاهرة،ط،2014، ص231.
([16]) ـ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن ،ص68 .
([17]) ـ الجرجاني: دلائل الإعجاز،تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط5، 2004م، ص45.
([18]) ـ فاضل السمرائي: بلاغة الكلمة في التعبير القراني،دار عمان، الأردن ، ص 47.
([19]) ـ مصطفى صادق الرفاعي:إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التوقيفية، القاهرة، 1346هـ،ص224 ـ 225.
([20]) ـ مصطفى صادق الرفاعي:إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،المرجع السابق، ص 231 ـ 232.
([21]) ـ ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، شرح وتعليق،عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة،ص54.
([22]) ـ سورة الكهف: الآية 97.
([23]) ـ ينظر:جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، جلال الدين عبد الرحمن السوطي، تفسير الجلالين، دار الحديث ، القاهرة، ط1 ،ص 394.
([24]) ـ أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، إعادة طبع 2007، ص457
([25]) ـ سورة هود: الآية 109.
([26]) ـ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق، يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون،دار المعرفة ، بيروت ، لبنان،ج2، ص37.
([27]) ـ سورة التوبة، الآية 32.
([28]) ـ سورة الصف، الآية 08.
([29]) ـ مفردات القرآن، مادة طفئ، ص 522.
([30]) ـ الزركشي بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق ،ج2، ص1133.

([31]) ـ مصطفى صادق الرفاعي:إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المرجع السابق،ص 129 ـ 130.

([32]) ـ مصطفى صادق الرفاعي:إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 230.

([33]) ـ سورة النجم:الآية 21 ـ 22.

([34]) ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص230.

([35]) ـ سورة الزمر الآية21.

([36]) ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص232.

([37]) ـ ينظر: تفسير الجلالين، ص54.

([38]) الأصفهاني: مفردات القرآن، ص 733.

([39]) ـ تفسير الجلالين، ص53 ـ 54.

([40]) ـ سورة هود: جزء من الآية 07.

([41]) ـ سورة البقرة، جزء من الآية 255.

([42]) ـ عبد الفتاح لاشين :ابن القيم وحسه البلاغي في القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص109.

([43]) ـ مفردات القرآن ، مادة (أرض)، ص73.

([44]) ـ نفسه مادة (سما)، ص 427.

([45]) ـ سورة النازعات ، الآية 34.

([46]) ـ سورة طه: الآية 11.

([47]) ـ فاضل صالح السامرائي: لمسات بيانية في نصوص التنزيل ،دار عمار، عمان، الأردن ، ط3، 2003، ص104.

([48]) ـ عبد الفتاح لاشين :ابن القيم وحسه البلاغي في القرآن، ص98.

([49]) ـ ينظر: جان كوهن، بنية اللّغة الشعرية، تر، محمد الولي، محمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ص07.

([50]) ـ ينظر :جون كوهن، بنية اللغة الشعرية،ص10.

([51]) ـ سورة القصص: جزء من الآية 20.

([52]) ـ سورة يس: الآية20.

([53]) ـ الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ،المجلد 20 ،ص95.

([54]) ـ سورة هود: الآية 02.

([55]) ـ محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ط7، 2001، ص170.

8. المراجع

1 ـ عبد الله بن صالح بن سليمان الوشمي: جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2005.

2 ـ ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، شرح وتعليق، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة.

3 ـ أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج4.

4 ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق، ع السلام محمد هارون، القاهرة ، ج 1، 1948.

5 ـ مناع القطان: مباحث في القرآن ، مكتبة وهبة، القاهرة، (د ـ ط)، (د ـ ت).

6 ـ فاضل صالح السّامِرائي: بلاغة الكلمة التعبير القرآني، دار عمار، عمان، الأردن، ط 4، 2006.

7 ـ عبد الوهاب خلاّف، علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر، مصر، ط8 ، (د ـ ت).

8 ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، ج4، 1965.

9 ـ عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م .

10 ـ ج فندريس: اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، منشورات الانجلو المصرية ، القاهرة، ط1، 2014 .

11 ـ الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط5، 2004م.

12 ـ فاضل السمرائي: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمان، الأردن .

13 ـ مصطفى صادق الرفاعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة التوقيفية، القاهرة، 1346هـ .

14 ـ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، المجلد الحادي عشر.

15 ـ جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، جلال الدين عبد الرحمن السوطي، تفسير الجلالين، دار الحديث ، القاهرة، ط1.
16 ـ أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، إعادة طبع 2007 .
17 ـ عبد الفتاح لاشين :ابن القيم وحسه البلاغي في القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1982 .
18 ـ فاضل صالح السامرائي: لمسات بيانية في نصوص التنزيل ،دار عمار، عمان، الأردن ، ط3، 2003 .
19 ـ جان كوهن، بنية اللّغة الشعرية، تر، محمد الولي، محمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.
20 ـ محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ط7، 2001.